الإمام عبد الله بن المبارك المروزي وأثره في الحديث

د/ جلال الدين احمد نوري

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلي بالولاء المروزي الخراساني من اتباع التابعين بخراسان والحنظلي نسبة الى بني حنظله، بطن من تميم وغطفان وجعفي، و لم يكن عبد الله مولى حنظلة بعينه، بل حمل الولاء عن ابيه مبارك، فقد ذكرت الروايات أن أباء كان مولى او عبدا لرجل من بني حنظله من أهل همدان.

والمروزي: نسبة الى مرو مدينة العلم والعلماء في خراسان، وخراسان بلاد شاسعة، اول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي باكستان، وتقع فيها أمهات الامصار الاسلاميه منها نيسابور و هراة و مرو و بلخ وطالقان و سرخس.

وكان مولد ابن المبارك بمرو في سنه(١١٨هج) على الأرجح وقيل انه ولد سنة(١١٩هج).

وتشير اكثر الروايات الى أصل ابن المبارك وتكاد تجمع على أن أباه كان تركيا وامه خوارزميه. وهذه الروايات هي التي دفعت بروكلمان وغيره الى القول: بأنه من أصل تركي لأن بعض الناس يدخل اعمال خوارزم في خراسان.(١)

ثقافته: من المعروف أن الامصار الاسلامية سابقاً ومنها مرو كانت تزدهر بالكتاب والعلماء الإجلاء حيث تدرس فيها شتى العلوم العربية والإسلامية العقلية منها والنقلية وكان غلمان تلك الأمصار يتوجهون في بدء حياتهم العلمية إلى حفظ القرآن الكريم على يد نخبة من القراء الأفاضل الذين كرسوا جهدهم لتعليم كتاب الله، وكان ابن المبارك من الجيل الذي تربى في احضان تلك المدارس المباركة، وقد عرف بذكائه الحاد منذ صغره، يروى صديق لابن المبارك ويدعى صخر قصة ذكاء الرجل منذ صباه وتبرهن على قوة حافظته منذ صغره، يقول صخر: كنا غلمانا في الكتاب فمررت أنا وابن المبارك برجل وهو يخطب

---

* أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية جامعة كراتشي

فأصغينا لخطبته الطويلة، فلما انتهت الخطبة، قال لي ابن المبارك: قد حفظتها فسمعه رجل من القوم، فقال هاتها يا غلام، فأعادها عليهم ابن المبارك وإذا به قد حفظ تلك الخطبة الطويلة من أول مرة. واختلف ابن المبارك في أول حياته العلمية إلى يعقوب بن القعقاع التميمي المروزي القاضي، وكذلك اختلف إلى منصور بن أبي سريرة المروزي. (٢)

ويحكي ابن المبارك قصة سماعة الحديث الأول فيقول: بأن أول شيخ مروزي اختلفت إليه لأسمع منه الحديث، هو يونس بن نافع الخرساني أبو غانم المروزي القاضي المتوفى سنة ١٥٩هجري. وأتيح لابن المبارك أن يسمع من التابعي الربيع بن أنس وهو من أهل البصرة، والربيع هذا ممن رأى ابن عمر وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك، وكان قد هرب من البصرة في زمن الحجاج، فأتى مرو وسكن في قرية من قراها يقال لها برز ثم تحول إلى قرية أخرى يقال لها سذور فاستقر فيها إلى أن مات، ومن البصريين الذين قيض لابن المبارك أن يلتقي بهم في مرو أبو عصام المزني ومحمد بن ثابت العبدي الذي ولي قضاء مرو حينا.

• مكانته العلمية في مرو:

لقد اشتهر ابن المبارك من بين أقرانه وهو في بلدته لم يبرحها، فقد كانت داره بمرو بمثابة المنتدى الذي يرتاده طلاب العلم من كل مكان، يسألون ابن المبارك عن شتى المسائل في الحديث والفقه وعلوم العربية، مما جعله يتشوق إلى لقاء العلماء من المحدثين والفقهاء في الأمصار الإسلامية، يقول ابن الجوزي: "كانت دار ابن المبارك بمرو كبيرة، صحن الدار نحو خمسين ذراعًا، فكنت لا تحب أن ترى في داره صاحب علم أو صاحب عبادة أو رحلاً له مروءة وقد مر بمرو! إلا رأيته في داره، يجتمعون في كل يوم يتذاكرون حتى إذا خرج ابن المبارك انضموا إليه" (٣).

• رحلته العلمية إلى الأمصار:

زيادة في طلب العلم ورغبة في السماع إلى الشيوخ والمحدثين، كان لا بد لابن المبارك أن يرحل إلى الأمصار الإسلامية الأخرى ليلتقي بصفار التابعين وأتباعهم فيصغي إلى مروياتهم، ويذكر الخطيب البغدادي بأن أول ما خرج عبد الله سنة إحدى وأربعين ومائة، وقد يمم وجهه نحو حاضرة العالم الإسلامي آنذاك أرض وادي الرافدين، حيث العلم والعلماء، وملتقى الأدباء والشعراء. (٤)

وفي العراق التقى ابن المبارك بأفضل العلماء ومشاهير المحدثين، وتتلمذ على أيدي الكثيرين منهم، ففي الكوفة استمع وأخذ الحديث من الحسن بن عمرو الفقيمي التميمي ويحيى بن سعيد بن حيان التيمي وعبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة الهذلي المسعودى وعطاء بن مسلم الخفاف ووكيع بن الجراح وآخرين غيرهم .

ومن شيوخه في البصرة هشام بن حسان الأزدي وسليمان بن المغيرة ويزيد بن إبراهيم التستري، وغيرهم من المحدثين الأجلاء ، كما قيض لابن المبارك أن يستمع في واسط إلى هشيم بن بشير الواسطي، وفي المدائن بالزبير بن سعيد بن سليمان وعبد الحميد بن همام الفزاري المدائني.

وفي الشام سمع ابن المبارك الحديث وتفقه على فقيه أهل الشام ومحدثهم الإمام الأوزاعي، ومحمد بن راشد المكحولي الخزاعي وخالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن ابى مالك هاني الهمداني. و لم تقتصر رحلة صاحبنا العلمية على هذين المصرين فقط ، بل أراد إكمال رحلته من أجل طلب العلم وسماع الحديث، فاتجه صوب الحجاز، وهناك استمع إلى كثير من المحدثين، منهم الحسين بن عبد الله الهاشمي المدني والضحاك بن عثمان بن عبد الله الأسدي، وحنظلة بن أبي سفيان بن عبد الرحمن بن صفوان بن أمية الجمحي المكي وعثمان بن الأسود بن موسى بن باذان المكي مولى بني جمح.

ومن الحجاز رحل ابن المبارك إلى مصر فالتقى بأجلة علمائها ومحدثيها، كان من بينهم موسى بن أيوب بن عامر الغافقي وعياش بن عقبة بن كليب بن تغلب الحضرمي ويحي بن أيوب الغافقي وآخرون غيرهم.

وقد شملت رحلة عبد الله العلمية المباركة هذه أرض اليمن أيضاً فاستمع إلى كثير من مشايخها من بينهم معمر بن راشد الأزدي ورباح بن زيد القرشي.

وبزيارة ابن المبارك لأرض اليمن قد تيسر له الإتصال بمعظم رجال العلم والحديث في العالم الإسلامي، ومن هنا تبرز ملامح شخصيته العلمية، حيث كان رحمه الله علماً في الحديث فقيهاً من فقهاء السلف.

- **آثاره العلمية:**

قلنا بأن ابن المبارك قد زار معظم الأمصار الإسلامية في عصره لطلب مزيد من العلم، فما هي آثار تلك الزيارة؟

يذكر ابن سعد بأن الرجل قد روى رواية كثيرة وصنف كتباً كثيرة في أبواب العلم وصنوفه حملها عنه قوم وكتبها الناس عنهم. (٥)

ويقول أبو عبد الله الذهبي بهذا الصدد: "قال يحي بن آدم: كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك، أيست منه".(٦)

ويروي بأن كتب عبد الله التي حدث بها قد بلغت عشرين ألف حديث. وقد دون علمه في الجهاد والفقه والزهد وغير ذلك.

ومن المفيد أن نذكر بشيء من الإيجاز أبرز تلك الآثار التي خلفها لنا ابن المبارك رحمه الله:

- **آثاره في الحديث:**

ورد ذكر الرجل عندالذهبي في الطبقة السادسة (٧) وذكره خليفة بن خياط في الطبقة الرابعة من محدثي خراسان (٨) ومعظم من ترجموا لابن المبارك نعتوه بلقب (الحافظ) ونعته البعض ((بأمير المؤمنين في الحديث)) ووصفه بهذا الوصف لم يات اعتباطاً، بل جاء ذالك. بعد أن تحققت فيه المقومات والملامح التي ينبغي ان تتوفر في الشخصية المحدثة ومنها:

١. العدالة والضبط: عند ما تجتمع في المحدث صفة العدالة والضبط؛ينعت بأنه ثقة أو ثبت؛ وصاحبنا من المشهود لهم بهاتين الصفتين؛ فقد شهد له بذالك احلة المحدثين ومشاهيرهم فها هو يحي بن معين امام الجرح والتعديل يشيد بابن المبارك عندما يسأله رجل عمن كان اثبت في معمر بن راشد: عبدالرزاق أو عبد الله بن المبارك، فيقول: ابن المبارك خيراً من عبد الرزاق ومن اهل قريته.

والخطيب البغدادي عندما يذكر علماء الحديث المعروفين بالعدلة والضبط، يعد ابن المبارك واحداً منهم (٩).

٢. **التشدد في الإسناد:** المقصود بالاسناد، هو سلسله الرواة الذين يروون الحديث عند النبي، صلى الله عليه و سلم وبما أن السنة المطهرة تعتبر المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي؛ لذلك أهتمّ علماء السلف والخلف بسند الحديث، خوفاً من أن يدس حاقد في الشريعة ما ليس منها. ويشبه ابن المبارك الرجل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد، بالذي يرتقى السطح من دون سلم، ويحكى عنه انه قال:طلب الإسناد المتصل لمن الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء. وكان رحمه الله لا يقبل الحديث إلا

بإسناد صحيح متصل، يحكى عن أبي إسحاق بن عيسى الطالقاني أنه قال: قلت لعبد الله بن المبارك: "يا أبا عبد الرحمن: الحديث الذي جاء، أن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك، قال، فقال عبد الله: يا أبا إسحاق عمن هذا، قلت له هذا من حديث شهاب بن خراش، فقال ثقة ، عمن؟ قال :قلت عن الحجاج بن دينار قال ثقة؛ عمن؟ قال قلت قال رسول الله صل الله عليه وسلم، قال: يا أبا إسحاق: إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي صل الله عليه وسلم مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي، ولكن ليس في الصدقة إختلاف" (١١)

٣. **كراهيته للتدليس:** التدليس يعني الإبهام والاختلاط، والتدليس مكروه عند أهل هذا الفن، وبالغ العلماء في ذمه: قال شعبة بن الحجاج: التدليس أخو الكذب، وقال أيضا "لأن أزني أحب إلي من أن أدلس". وجاء كلام ابن المبارك مطابقا لكلام شعبة عندما قال: "لأن نخر من السماء أحب ألي من أن ندلس حديثا".

حفظه للحديث وكتابته له: لقد وقف الصحابة والتابعون من بعدهم موقفا متشددا من تدوين السنة المطهرة، وذلك لنهيه عليه الصلاة والسلام عن كتابة الحديث مخافة اختلاطه بالقرآن الكريم، ويقال بأن عمر بن عبد العزيز والزهري كانا على رأس المدونين للحديث، ثم تبعهم بعد ذلك علماء من أتباع التابعين، وبالرغم من قيام هؤلاء العلماء بتدوين كانت تلقي معارضة شديدة من البعض الآخر من العلماء، وتشير أكثر الروايات إلى أن ابن المبارك كان ممن يجيز كتابة الحديث، فيحكى عن السندي بن ابي هارون أنه قال: كنت اختلفت مع ابن المبارك إلى المشايخ ، فربما قلت له: يا أبا عبد الرحمن ممن تستفيد؟ قال: من كتبنا. (١٢)

ويحكى عنه أنه قال: "إذا اختلف الناس في حديث شعبة فكتاب غندر حكم بينهم "(١٣). وغنر : هو محمد بن جعفر الهذلي مولاهم أبو عبد الله البصري المعروف بغندر المتوفى سنة ١٩٣هجري بناء على ما ذكرناه آنفا يتضح لنا بأن صاحبنا كان يمزج بين كتابة الحديث وبين حفظه، فلم يعتمد على الكتابة وحدها دون الحفظ، بل كان يرى أن كتابة الحديث تساعد على حفظه، وبالرغم من ذلك كله فإنه كان يتخوف من الكتابة وحرصه على ألا تقع تلك الكتب بيدي والده، حيث يحاول إخفائها عنه. وقيل له ذات يوم، يا أبا عبد الرحمن: إلى متى تكتب هذا الحديث ؟ فقال: لعل الكلمة التي أنتفع بها ما كتبتها بعد.

ويعتبر ابن المبارك من الأوائل الذين صنفوا الأحاديث بالنسبة إلى جمع الأبواب وضمها إلى بعض في مؤلف أو جامع، وقد صنف رحمه الله ثمانية مصنفات في السنن والفقه وتاريخ رجال الحديث والزهد والرقائق (١٤). كما أنه يعد أول من صنف في الجهاد كتابا.

٤. **تشدده في قبول الرواية:** لم يكن جميع الرواة للذين رووا أحاديث النبي (صلى الله عله وسلّم) على درجة واحدة من العدل والحفظ والضبط؛ اذا ان منهم الحافظ المتقن، ومنهم من هو دون ذلك، وهناك نفر قد حشر نفسه في زمرة المحدثين وهو ليس منهم، وبالاضافة الى تشدد ابن المبارك في سند الحديث، فانه كان يتشدد أيضا في معرفة الراوى والوقوف على حقيقته، شأنه في ذلك شان جهابذة الحديث امثال البخارى والثورى وغيرهما، ويذكر بان اصحاب الحديث في الكوفة اذا تشاجروا في حديث. قالوا: مروا بنا إلى هذا الطبيب حتى نسأله ويعنون عبد الله بن المبارك (١٥).

- **فقه عبد الله:**

اشتهر الرجل بين أهل الحديث اكثر من شهرته في الفقه، لسبب بسيط هو انه من الصعوبة بمكان أن يكون الرجل فقيهاً ومحدثاً في وقت واحد، فأبو حنيفة برع في الفقه اكثر من الحديث ومثله مالك بن انس، في حين أن أحمد بن حنبل قد برع في الحديث اكثر من الفقه.

وقد تفقه صاحبنا على أبي حنيفه النعمان بن ثابت صاحب مدرسة الرأى في العراق، وقد لازمه ابن المبارك مدة من الزمن وأخذ عنه الفقه وهو في الكوفة قبل أن يرحل الى بغداد وتقول الروايات أن عبد الله لم يزل على مذهب ابي حنيفة إلى أن مات على أن هناك بعض الروايات تؤكد انحراف ابن المبارك عن أبي حنيفة وطعنه في حديثه الذي رواه عنده وقد تكفل الخطيب البغدادي بذكر أغلب تلك الروايات المتناقضة مما لا مجال لذكرها في هذا المختصر.

كما انه تفقه على إمام دار الهجرة مالك بن أنس وروى عنه الموطأ وكان منهج مالك الفقهى أقرب الى نزعة ابن المبارك الفقهية من أبي حنيفة، وقد ذكر ابن فرحون اليعمرى المالكى ابن المبارك فيجملة اصحاب مالك من اهل المشرق.

قد وردت آراء الرحل الفقهية فى بطون أمهات الكتب التى تكفلت بذكر آراء فقهاء السلف امثال سعيد بن المسيب والاوزاعى والحسن البصرى وابن سيرين (١٦).

- **ادبه وشعره :**

بالاضافة الى ما اشتهر به ابن المبارك من فقه وحديث، فقد عرف رحمه الله بحبه للأدب والشعروالنحو، وقد قال الشعر فى الزهد والحث على الجهاد، كما أنه يمدح فى بعض الأحيان شيوخه من العلماء مثل أبى حنيفة النعمان وحماد بن زيد الأزدى ومالك بن أنس:

ويقول الاستاذ المحتسب، بأنني قد جمعت شعر بن المبارك وطلبته فى مظانه، فبلغ عندى مائة بيت ومن أبياته التى بعث بها وهو بطرسوس الى الفضيل بن عياض الناسك فى سنة ١٧٧هج وكان مجاوراً بمكة:

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا	لعلمت انك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ومن شعره الذى يوبخ به ابن علية عندما ولى أمر المظالم فى ايام هارون الرشيد، فكتب اليه قائلاً:

يا جاعل الذين له بازياً	يصيد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها	بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنوناً بها بعدما	كنت دواء للمجانين
لاتبع الدين بدنياكما	يفعل ضلال الرهابين

- **مؤلفاته:**

لقد دون عبد الله كثيراً من العلوم، وقد ذكر بعضها ابن النديم، ومن هذه المؤلفات.

١. كتاب السنن فى الفقه.
٢. كتاب التفسير.
٣. كتاب التاريخ.

٤. كتاب البر والصلة.

٥. كتاب الزهد والرقائق.

وقد نسب محمد بن جعفر الكتانى الكتابين التاليين لابن المبارك.

٦. كتاب الاستئذان، وهو من الكتب المفردة فى ابواب مخصوصة.

٧. كتاب الجهاد: وهو أول مؤلف صنف فى بابه. (١٧)

- **تلاميذه :**

يقول الذهبى لقد حدث عن ابن المبارك خلق لايحصون من اهل الأقاليم، فانه من صباه ما فتر عن السفر، منهم عبد الرحمن بن مهدى، ويحى بن معين، وحبان بن موسى، وابوبكر بن ابى شيبة، وأحمد بن منيع، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم.

- **ثناء الائمة عليه:**

اثنى على ابن المبارك كثير من الائمة اعترافا منهم بجلالة قدرة وعظيم شأنه .

قال محمد بن المعتمر: قلت لابى لما مات الثورى، من فقيه العرب؟ قال ابن المبارك.

وقال ابن وضاح: سمعت جماعة من اهل العلم يقولون: اجتمع فى ابن المبارك العلم والفتيا والحديث والمعرفة بالرجال والشعر والسخاء والعبادة والورع.

- **وفاته:**

توفى الرجال الفاضل عام ١٨١هج ودفن بهيت وقبره معروف ويزار، التحق ابن المبارك بالرفيق الاعلى قبل اكثر من اثنى عشر قرنا، وما زال اسمه يتردد على السنتنا، والرجل يموت، وذكره يخلد، فرحم الله الرجل الذى تذكره الاجيال بالخير على ممر العصور والازمان وتجد فيه الاسوة الحسنة، ونفع به الامة من بعد...

المصادرو المراجع

١- تاريخ أدب العربي / كارل بروكلمان / دارالمعارفبمصر-١٩٥٦م

٢- عبدالله بن المبارك / للدكتور عبد المجيد المحتسب من منشورات وزارة الأوقاف والشئون الدينيه-عمان- الاردن. ١٩٧٠م.

٣- نفس المراجع وما بعدها.

٤- تاريخ بغداد/ للخطيب البغدادى المجلد العاشر دارصادربيروت-لبنان١٣٥٥هج

٥- الطبقات الكبرى/ لعبدالوهاب العشراني/ مطبعةمحمدعلىصبيح القاهره ١٣٦٠هج.

٦- تذكرة الحفاظ/ لابى عبدالله شمس الدين الذهبىمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيه الهند ١٣٧٥هج.

٧- نفس المصدر

٨- طبقات خليفه بن خياط/ محقق الدكتور ضياء اكرم العمرى- دارالقدس بغداد١٩٧٠م

٩- الكفاية فى علم الرواية/ ابوبكرأحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادي (المتوفى ٤٦٣هج) بغداد.

١٠- الصيحبح لمسلم/ بشرح محى الدين يحيى بن شرف النووى المتوفى٦٧٦هج- القاهره.

١١- المصدر السابق.

١٢- الكفاية فى علم الرواية.

١٣- حلية الاولياء- للحافظ أبى نعيم الاصفهانى- مطبعة السعادة/ بمصر.

١٤- الجهاد- للحافظ عبدالله بن المبارك- تحقيق نزية حماددارنشر بيروت ١٥_كتاب الرد/ لابى بكر الخطيب البغدادى-القاهره

١٦- المغنى —لا بن قدامه القدسى- القاهره , والعقد الفريد/ لآبى عمر احمد بن محمد عبدربه الاندلسى لجنة التاليف والترجمة والنشر١٩٥٦م

١٧- الفهرست لمحمد بن اسحاق النديم البغدادى مطبعة الاستقامة بمصر

١٨- وفيات الاعيان/ لابى العباس احمد بن محمد بن ابى بكر بن خلكان/ حققه محمد محىالدين عبدالمجيد مطبعة السعادة بمصر

والبدايه والنهايه فى التاريخ / للحافظ ابى الفداء ابن كثير الدمشقى مطبعة السعادة بمصر

وطبقات الحنابلة للقاضى ابى الحسين محمد بن القاضى ابى يعلى محمد بن الحسين بن الفراء مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٥٠هج.